الاقتصاد
بين فقهِ الخُبراءِ العارِفينَ وتفيقُهِ الأدعياءِ المُتعالِمينَ

محمد ياسر الدباغ
مدقق لغوي

الحلقة (٢)

عَودٌ على بَدءٍ، والعَودُ أحمدُ

تَفيقَهَ: أظهرَ الفقهَ، وتظاهَرَ أنَه يفقَهُ؛

دَعِيٌّ: لقيطٌ، غيرُ أصيلٍ؛ لا دليلَ ولا بُرهانَ لَدَيه.

تعالَمَ: أظهَرَ العِلْمَ وتباهَى أنَه عالِمٌ فَقيهٌ؛

إنّ الإنسانَ الذي كرَّمهُ اللّهُ تعالى، وجعلَهُ خليفةً لإقامةِ منهجِه عزَّ وجلَّ في الأرضِ؛ فيسعدَ في دُنياهُ، ويفوزَ في أُخراهُ له من المتطلَّبات (الروحية والمادية) والعلاقاتِ الاجتماعية؛ التي تتكوَّنُ منها شخصيَّتُه الإنسانيةُ؛ وتتجلَّى بـ (أفكارٍ بنَّاءةٍ، ومفاهيمَ قِيَميَّة، ومُثُلٍ عُليا) .

والعالَمُ ما زالَ يعيشُ– قديماً وحديثاً– في دوَّامةٍ من (التِّيه، والضياع، والتخلُّف)؛ ولمَ لا وقد جَرَى يلهَثُ وراءَ نظرياتٍ اقتصاديةٍ وضعيَّةٍ يطلبونَ منها الخلاصَ من مشاكلِ (العَوَزِ والجُوعِ والتخلُّف) زعماً منهُم أنَّهُم يُقيمُونَ بتلكَ النظرياتِ البشريةَ جَنَّةَ اللهِ في أرضه؛ ولكنَّهُم رجَعُوا بحصادٍ ضخمٍ من (الأسى، والشقاء، والحِرمان)، وما عادُوا إلاّ (بسَرابٍ بِقيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمآنُ ماءاً حتّى إذا ما جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شيئاً)، ووَجَدَتْ نفْسَها (أمام حائطٍ مسدودٍ أو وسطَ مستنْقَعٍ آسنٍ) مقابلَ (تبذيرٍ وغفْلةٍ وانغماسٍ) في اللهوِ والملذَّاتِ بالنسبةِ للآخَرينَ.

إنّ المبادئَ الاقتصاديةَ عند الرأسماليةِ أدعى إلى السُّخريةِ منه إلى القَبول؛ فقَد ضجَّ تاريخُها بـ(فجائعَ مُروِّعةٍ وكوارثَ فادحةٍ) قلَّ نظيرُها في تاريخِ البشريةِ، وبتناقُضاتٍ صارخةٍ بين كلٍّ من المصالحِ (الخاصَّةِ والعامَّة)، وفراغٍ هائلٍ لتخلِّيه عن الكيانِ (الخُلقيِّ والرُّوحيِّ) لبني الإنسانِ؛ فامتلأ بألوانٍ من (الظُّلمِ، والاستهتارِ، والطمعِ، والجشعِ) بدلَ أن ينشُرَ بين الناسِ (القِيَمَ الراقيةَ والفضائلَ الإنسانية) . كما أدَّى إلى تجمُّعِ الاحتكارِ والاتِّحاد– بأنواعهما كافّةً– ضدَّ الفردِ؛ وهذانِ العاملانِ بدَورِهما الخطيرِ وشَرِّهما المستطيرِ يدوسُ رؤوسَ الآخَرينَ، ويلوي أعناقَهُم، ويغلُّ أيدي الناسِ؛ فحرقَتْ ثمرةَ جهدِهم وكدِّهم مُتجاهِلَةً فيهم غريزةً من غرائزِهم، وأجهزتْ على ما تبقَّى من دوافعِ (العِلم، والعملِ، والابتكارِ)، ومناهجِ الاتِّباعِ وعواملِ الإبداعِ؛ ممّا جعلَ الإنتاجَ (ناقصاً وقاصراً)؛ لانطماسِ نُورِ البصيرةِ، وارتكاسِ الفِطرَةِ في حمَأةٍ من الجاهليَّاتِ– القديمةِ منها والحديثةِ–، ونَقْصٍ في العقولِ،

وقُصورٍ في الأفهامِ، وانعدامِ التطلُّعِ إلى المستقبلِ الزاهرِ المشرقِ لأُمَّةٍ تُريدُ أن تحيا بـ (كرامةٍ وعِزَّةٍ وإباءٍ)؛ فـ(كُلُّ وعاءٍ بما فيهِ يَنضَحُ، وكُلُّ جَرَّةٍ بما فيها ترشَحُ) .

أمّا مَن اعتبَرَ المالَ مَشاعاً بين الناسِ؛ فقَد أهدرَ حقَّ الإنسانِ في التملُّكِ، وغلَّ يدَه عن التمتُّعِ بـ (ثمارِ عَملِه، ونَتاجِ فِكرِه)، ولم يُصْغِ لِمَصلحَتِه؛ بل وقفَ منها موقفَ العداءِ والجُحودِ، وركبَ قاربَ الإلحادِ وصارَ يَمْخُرُ عُبابَ بحرٍ من الفسادِ مع تحدٍّ لِنداءِ الفطرةِ الربانيةِ التي فُطِرَ البشرُ عليها، وحاربَت النوازعَ الإيمانيةَ، وقتلتْ في نفْسِ بني الإنسانِ (دوافعَ الطُّموحِ، وبواعثَ الترقِّي)، وأقامتْ ركائزَها وأنشأتْ قواعدَها على أشلاءِ البُؤساءِ وأنقاضِ المغلوبينَ .

وأمّا بالنِّسبَةِ لِمَن يُضحِّي تماماً بمصلحةِ الفردِ في سبيلِ مصلحةِ الجماعةِ؛ حتّى وصلَ إلى أنّه (ألغَى الملكيّةَ الفرديَّةَ) لأدواتِ الإنتاجِ إلغاءً تامّاً؛ ممّا أدّى إلى (القضاءِ على الحريةِ الاقتصاديةِ، والاصطدامِ مع الفِطرةِ الإنسانيةِ)، وتثبيطِ الهِمَمِ، وبَذْرِ بُذُورِ التواكلِ وحُبوبِ التكاسلِ؛ فتقُهقرَ الإنتاجُ (كمَّاً ونوعاً) .

لقد سقطَت النُّظمُ الاقتصاديةُ الوضعيةُ في أوديةٍ من (الأزماتِ، والاضطراباتِ، والاختلالاتِ)، وإنّ الأزماتِ الحقيقيةَ المتمثِّلَةَ في خَفْضِ الأُجورِ والأرباحِ، وعَجْزِ المشاريعِ، وانتشارِ البطالةِ، ونُدرَةِ التسليفِ، وارتفاعِ فائدةِ الدُّيونِ في البورصةِ والكسادِ، والتباطُؤِ في الإنتاجِ، وأخيراً انهيارِ الأسعارِ في البورصةِ؛ لتأمينِ تصريفِ البضائعِ المخزَّنةِ؛ وهو ما يسمَّى تصفيةَ الأزمةِ، ويؤدِّي إلى مرحلةٍ من التكيُّفِ يُسبِّبُها انخفاضُ الأسعارِ الذي يسمحُ للطلبِ بالتوجُّهِ مجدَّداً إلى السوقِ؛ وهذه التناقضاتُ تتميَّزُ بـ(انحطاطِ وانحلالِ البلدانِ الرأسماليةِ من القاعِ إلى القمَّةِ) وهذا ما زلزلَ العالَمَ وما زالَ يُزَلْزِلُه؛ لِعَدمِ قُدرَتِه المتزايدةِ على الاستخدامِ الكُلِّيِّ للقوى المنتجةِ المتوفِّرةِ؛ ممَّا يُؤدِّي إلى (احتدامِ التناقُضاتِ بين القوى المنتِجَةِ وعلاقاتِ الإنتاجِ) وهذه التناقُضاتُ تتمثَّلُ في (العملِ ورأسِ المالِ)، وبين (مصالحِ الأمَّةِ ومصالحِ شِرذِمَةٍ من المحتكِرينَ)؛ فالصِّراعُ التنافُسيُّ على السُّوقِ تزدادُ حدَّتُه وشِدَّتُه، وقد اتَّخذَ الانضباطُ طابَعاً تعسُّفيّاً، ونتجَ عنهُ ما يُسمَّى بـ(انكماشِ الشغِّيلَةِ) الذين يُمثِّلُونَ ضحايا (الانكماشِ والتضخُّمِ) .

إنّ صِبغَةَ (البرجوازيةِ) تشاؤميةٌ (مُشبَعةٌ بالخوفِ من المستقبلِ، والعجْزِ عرضِ أفكارٍ مُبتكَرةٍ وقادرةٍ على تحريكِ عناصرِ الأمَّةِ) كافّةً؛ لِتعارُضِها مع التطلُّعاتِ الإنسانيةِ، وتعيشُ تناقُضاتٍ في داخلِها، وتحملُ بُذورَ حتْفِها في طيَّاتِها؛ لوجودِ (طُغمَةٍ ماليَّةٍ طفيليَّةٍ متعفنَّةٍ محتضرةٍ محتكرةٍ مخادعةٍ)" كُبْرى ومُتوسِّطةٍ وصُغرى" تتحكَّمُ في مصائرِ الناسِ، وتنخرُ كالسُّوسِ في كيانِ الأمَّةِ؛ لِما لها من عقليَّةٍ مُتحجِّرةٍ، وسُلوكيَّاتٍ مُتذَبْذبَةٍ (لا إلى هَؤلاءِ ولا إلى هؤلاءِ)؛ فالمنفعةُ الشخصيةُ هي الحكَمُ المحكَّمُ .

وقد أوشكتْ هذه (النظرياتُ المحتضرةُ، والقواعدُ المتزلزلةُ، والرؤوسُ المترنِّحةِ) أن تُعلنَ إفلاسَها في البلادِ، وتحملَ نعشَها على أكتافِ (أربابِها ومُنظِّريها)؛ والتي كان فيها مَسقطُ رأسِها، وبين أُناسٍ هُمْ (سَدَنَتُها وحُماتُها) غريبةٍ عليها في بيئةٍ غيرِ بيئتِها، ومَناخٍ غيرِ مناخِها، ودخيلةٍ عليها (أصلاً ونَسباً) .

ولا يخفى على كُلِّ ذي عَينَين أنَّ كُتُبَ كثيرٍ من المنظِّرينَ وأربابِ الاقتصادِ الوضعيِّ قد ذهبتْ شهرتُها الزائفةُ، وتلاشَتْ أصداؤها الصاخبةُ، وصارتْ عجينةً لكُتبٍ نفيسةٍ قيِّمةٍ يُستفادُ منها بـ(الدَّورةِ الاقتصاديةِ الكُلِّيَّةِ) للأمَّةِ بَدَلَ أن تُحْرَقَ وتملأَ العالَم دُخاناً وشَحّاراً أسودَ يُؤذي البشرَ، ويُورِثُ البيئةَ وَبالاً وضرراً، قال اللهُ تعالى :(فأمّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وأمّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فيَمْكُثُ في الأرْضِ) .

لقد تحولَّتْ– ولله الحمدُ والمنَّةُ– إلى كُتبٍ (تشعُ نُوراً، وتُبدِّدُ ظلاماً، وتَرفعُ عن الأُمَّةِ ضَلالاً)؛ فكفَى الإنسانَ العاقلَ (مُكابرةً ومُفاخرَةً ومُتاجرةً) بمبادئِ وقِيَمِ ومناهجِ البَشرِ ؛ فهلاّ من عَوْدٍ حمَيدٍ إلى شرَعِ اللهِ الخالقِ الرَّزَّاقِ، قال اللهُ تعالى : (ألاّ يَعلَمُ مَنْ خَلَقَ وهُو اللطيفُ الخبيرُ)، بلَى .

قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: (وكَذلِكَ جَعلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهداءَ على النَّاسِ ويكونَ الرَّسُولُ عَلَيكُمْ شَهيداً)<

للهِ درُّ الأديبِ العالِمِ المؤرِّخِ أحمد الصابونيّ – رحمَهُ اللهُ تعالى – القائِل :

أثرُ الفَتى ذِكْرٌ لَـهُ ... لَمْ يُذْكَـــــر إلاّ العالِم
فَدَعِ الجَهالَةَ جانباً ... وتَيقَّظَــنْ يـا نــائِــمُ
أوَ لَسْتَ تُبْصِرُ أنّ ... مَن هُوَ جاهِلٌ يتعالَمُ؟

.

.